

من فوق جبل عرفات تحددت حقوق الإنسان



في السنة العاشرة للهجرة (632م) حج النبي (ص) حجته الوحيدة وفيها خطب الناس خطبته تلك اشارة الجامدة التي طل صداتها يتردد في سمع الزمان ووعتها ذاكرة التاريخ لما تضمنته من حقوق مدنية واجتماعية اعتبرها الفقهاء وثيقة إسلامية لحقوق الإنسان سبقت كل المعايير اللاحقة والإعلانات التي بحثت في هذه الحقوق بل هي الأولى من كل القوانين الوضعية الأرضية لأنّ الذي أعلنتها (ص) (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم/3-4)، فبنيودها مستمدّة من شرع الله القائم بالقسط والعدل. إن ما اشتغلت عليه خطبة حجة الوداع يمثل كمال البنيان الإسلامي الذي أعلنت عنه الآية الكريمة (المائدة: 3) التي نزلت على رسول الله (ص) في حجة الوداع وهي قوله تعالى: (إِلَيْكُمْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ زِرْعَهُمْ تَرَيْ وَرَضَيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْنًا).

فما أعجب أمرنا نحن المسلمين الذين أغفلنا كمال هذا الدين فرحنا ببحث هنا وهناك عن نظام دولي جديد أو قديم ولدينا تمام نعمة ربنا علينا الذي ارتضى لنا سبحانه هذا الإسلام القويم دينا.. عالمنا العربي والإسلامي يتميز وتتفقّع وأوصاله وحقوق الإنسان تنتهي وتنتهي به ومن يدعون حماية حقوق الإنسان ونحن على الرغم من كل ما يجري وتشاهده أعيننا ننساق وراء الخداع الذي يمارس علينا يومياً وصادقه. ما أصدقك يا رسول الله يوم أن أعلنتها في خطبتك الجامعية "إنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به - وفي رواية ما إن تمسكتم به - لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه" لقد حدث الملل والضياع والنكرى على الأعقاب يوم أن فرطنا فيما تركته علينا - كتاب الله وسننكم - ورحنا نتلمس الحقوق عند من يسلبون هذه الحقوق.

إنّ دماءنا وأموالنا وأعراضنا لم تعد يا رسول الله لها حرمة علينا فيما بيننا ومن هانت عليه نفسه هانت هذه النفس على الآخرين. نحن نبحث لاهثين اليوم عن الأمان النفسي والاقتصادي، هذا الذي أعلنته من فوق جبل عرفات في خطبتك التي اصطلاح على تسميتها بحجة الوداع أو حجة البلاغ إذ أعلنتها: "... إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقباً بعض".

الأمن النفسي والأمن الاقتصادي هما صالة عالمنا المعاصر كلّ يبحث عنهمما في إطارهما تتحقق أشياء كثيرة للأمن الغذائي والأمن الصحي وما إلى ذلك. ويتحقق ذلك بحماية الكليات الخمس في الشريعة الإسلامية: العقل والنفس والدين والعرض والمال ويدخل في نطاق الأمن الاقتصادي ما أعلنه رسول الله (ص) من "أن رب الجاهلية موضوع...".

ليس هذا فحسب، بل كلّ "أمر من أمور الجاهلية" موضوع من استعلاء واستبداد وتطاحن وتشاحن وتباغض ونهب وسلب وحروب بين الأخوة.. كلّ ذلك موضوع بما بالنا نعود إلى ما وضع من أمر الجاهلية؟ "... واعلموا أنّ المدمر تغل على ثالث: إخلاص العمل [١]، ومناصحة أهل الأمر، ولزوم جماعة المسلمين" و"مجموعة القضايا التي عرض لها الرسول (ص) في خطبته في حجة الوداع، تشكل المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والتي لابدّ من حراستها وعدم السماح بخرقها والخروج عليها من الحاكم والمحكوم".

لقد أعلن رسول الله (ص) في خطبته حجة الوداع من فوق جبل عرفات وحدد حقوق الإنسان التي يجب أن نجعلها بنودنا الأساسية ومرتكزاًتنا في عالمنا الإسلامي فيها تتوفّر الحقوق الناضعة الواضحة لا ما يدعوه القوم هنا وهناك ففيها كما يقول الدكتور محمد عمارة تحدث عن الإخاء والمساواة.. هذه المساواة التي أكدت على أهمية الإسلام وعالميته، وفيها أعلن الثورة التي نسخت كلّ ما هو جاهلي من أعراف الجاهلية وجميع ما هو ظالم من النظم والأعراف التي سبقت الإسلام.

والذين يتحدثون اليوم عن حقوق المرأة ويبحثون في أمر مساواتها نقول لهم إنّ "المعصوم" (ص) في خطبة حجة الوداع من فوق جبل عرفات التي حدد فيها حقوق الإنسان لم يغفل هذا الأمر فالنساء عندـه "شـفـاقـ الرـجـالـ" لهنّ من الحقوق مثل الذي عليهمـ من الواجبات فأوصـيـ بهنـ خـيرـاـ "اتـقـواـ [٢]ـ فيـ النـسـاءـ فإنـكـ اـخـذـتـمـوهـنـ بـأـمـانـةـ [٣]ـ".

وأخيراً إنّ كلّ "الدسـاتـيرـ والـقـيـمـ والـقـوـانـينـ الـوضـعـيـةـ أـشـبـهـ بـخـارـفـ وـدـمـيـ". ووـحدـهـماـ كتابـ ربـناـ وـسـنةـ نـبـيـنـ الصـرـحـ المـتـيـنـ لـنـ نـضـلـ أـبـداـ ماـ إـنـ تـمـسـكـنـاـ بـهـمـاـ.